عبور الوادي الكبير

بعدنا عن النخل ...
ها هي شمس القرى تمنح النخل غابا من الريش احمر،
ها هي اكواخنا :
ـ سعفة نستظل بها او وقود لبفضائنا ـ
كلها تهبط الارض، كوخا فكوخا، وتلقي بها الارض للماء
كنا نمد لها شعر اطفالنا :
سروة شعر اطفالنا
امسكيها
امسكينا بها
غير ان المنازل مثل الطباشير تمحى
من الارض تمحى
وفي الماء تمحى
وها نحن بين المدى والسماء وحيدين
يا أرضنا المشتراة المباعة ، والمشتراة المباعة ، ثانية
انت يا وجه من يتذكر منا شهادة ميلاده :
بعدنا عن النخل
ها هي شمس القرى تمنح النخل غابا من الريش احمر
ها هي شمس القرى تمنح النخل غابا
وها هي شمس القرى
ها ... هي
ها ... هي
ها ...
هي ...

* * *

كواكب مائية في السماء التي تعرف الصيف والسفن الاميركية الصنع ،

* في المتوسط لا تستحم الكواسج
* هل تذكرين المنازل ؟
* تلك التي غادرتها السفينة ؟
* لا .
* حانة البحر في اور ؟
* لا .
* دارتي في سمرقند ؟
* لا .

ان كل المنازل مغلقة ، فأمام الوجوه الشريدة لا يفتح الناس ابوابهم ، قد نسينا بقرطبة ، الشرفة الاموية ، والطفل ... حين نسافر ننسى الحقائب، او نتناسى متاعبنا وكتاب القصائد ، يا ايها الفارس المستحيل : تظل المسافات تنأى ، وفي مقلتيك تغور الشواطىء ، لا تكتئب : فالحوافر فيها الشرار ، وهذا السبيل الحجار ...

● ولكننا قد بعدنا عن النخل ...
● آخر رايات كولمبس المستدقة تبحر من برشلونة
● وآخر ابراج غرناطة اقتحمته خيول الشمال .

* * *

تصير المسافات لي راية ... ان اهلي بعيدون ، لا تحمل الطير اخبارهم لي ، ولا تحمل الطير أخبارنا لهمو ... يا جناح الليالي الطويلة ، كن موطني والكتاب الذي ليس يطبع ... كن في مقاهي المحبين دورة شاي، وفي شفتي من احب : الشقائق والرجفة المستسرة... كن يا جناح الليالي الطويلة نجمي ... لقد ضيع القطب نجم الهداة ... ولكن اهلي البعيدين ما برحوا بانتظاري ...

* الى أين تذهب يا فارس الليل ؟
* أهلي بعيدون سيدتي ...
* انني بانتظارك منذ ليال ثلاث ... علمت بأنك آت.

أتنزل ؟
* سيدتي ... حيث انزل اقتل
* تقتل في منزلي ؟
* آه ... سيدتي ... انني متعب ... غير اني...
وداعـــا
وداعـــا

* * *

وغادرت منزلها ... كان في بابه القرطبي صنوبرة ، كنت اسمع نبض العصافيـــر اذ تتنفس نائمـــة بين افنانها والنجـوم الخفيضـــة ... احسست ان العصافير سوف تموت صباحا .

* * *

حين ناديته : فارس الليـــل ! ارخى العنان قليلا . كثيرون مروا ببابي ، ولكنني لـم أجد مثله ... شاحبا كان ، ظمآن ، لكنه رفض الماء من جرتي ... لم يقف مثـــل فرسان قرطبة الآخرين يغازلني ... قال شيئا ، وسار ...

* * *

على باب جيّان في قرطبة
رآه الندى يدخل المسجد المتوحد ، في آخر الليل ، كان الندى خصلا في جبيـن المسافر ، والليل اغماضة في عيون الجواد، وكانت نوافذ قرطبة المشرئبة بالورد تنتظر الخطوة الملكية، القت نوافذ قرطبة الورد.. غطت به غبرة السفر المستديمة فوق قباء المسافر ، والتعب المر في لفتات الجواد .
وفي لحظتين رايناه يخرج مـــن باب مسجدنـــا . أغلق الباب . سمرها ، دوننا ، تحت اغضاء عينيه ، ثم اعتلى صهوة الفرس المتمايل بين غصون الصباح المبكرة الطير ، والنسـوة المسرعـات ... وكانت ورود المســـافر تهطل ... والنسوة المسرعات يخبئنهـــا في صدور الصبايا .

* * *

ذهبت الى السوق ، كنت غريبا به متعبا ، والتجار يدورون حولي ...
يقولون لي : نشتري منك هذا القميص .
وكانوا يمدون أيديهم نحوه :
نشتري منك هذا القميص الملطخ
. . . . . .
. . . . . .
ولكنه راية لبستني غداة الهزيمة .

* * *

جـــوادي على الوادي الكبير ، ورايتـي بفرناطة الابراج ، يكنزها الصخر
فلا تسألوا عني وعنهـــا ، فاننـــا لهـا آخر العشـــاق ، والهـــاتف السر
لقد كان لي فيهـــا انيس ، وان لـــي انيســـا بها ، حتى لو اجتـــاحها العصر
وغيب ما بـــين القـــلاع وسهلهـــا
كتائبهـا العشرون والســـامر البـدر
« اذا علم خلفتـه يهتـــدي بـــه
بدا عـــلم في الآل » اشقـــر مفتـــر
فشد على كفي ، واطلـــع زهـــرة من الصدر
عند القلب ...
وانهمر الزهر

* * *

قميصي ... لكل المشترين ابيعه
وسيفي
وعينا جوادي .
أنا الآن منجرد بينكم
فاحملوا كل ما يشترى
ـ هل خسرت سوى عبء اغلالكم ؟ ـ
علقوا فوق جدران قاعاتكم غمد سيفي
وعيني جوادي الجميل
اجعلوا من قميصي حديث اجتماعاتكم
ـ هل خسرت سوى عبء اغلالكم ؟ ـ
واتركوني وحيدا
دعوني أقل ما أشاء
دعوني أكن من أشاء
دعوني أمت ، او أعش نجمة
ففرناطة العشق عريانة ، وحدها ...
انها بانتظار الذي سوف يأتي
وحيدا ...

بغداد — سعدي يوسف